

الأخ ضد أخيه

يدين جيبون سبتموس سيفيروس لكونه السبب المهم في انحطاط الإمبراطورية الرومانية. وهو يعني بهذه الإدانة أن اهتمام سبتموس بالجيش الذي عبر عنه في آخر كلمة تفوه بها وهو على فراش الموت احتوت على بذرة الفوضى التي عمت الإمبراطورية فيما بعد، والتي تحول العساكر أثناءها إلى صانعي الملوك والأباطرة، فأصبحوا يعاملون هؤلاء كأنهم أعبوة بين أيديهم. ولكن سبتموس كما نعلم لم ينس لمن هو مدين في ارتقائه إلى الرداء الأرجواني، ولم يكن الإمبراطور الأول الذي اعتمد على الدعم العسكري في بقائه. فنقطة الضعف هذه كانت ملازمة للإمبراطورية منذ ولادتها. إذ إن مؤسس هذه الإمبراطورية أغسطس قد فاز بلقبه هذا بعد معركة. واتبع خطاه اثنان من قواد الجيوش قبل زحف سبتموس من كارنونتوم إلى روما. وبتحسين أحوال الخدمات العسكرية وزيادة أجور الجنود أوجد سبتموس جيشاً منظماً قوياً مخلصاً له، وهو أداة مفيدة طيبة في يد إمبراطور يملك القوة الكافية للسيطرة على ذلك الجيش الذي يصبح خطراً إذا وقع تحت يدي رجل ضعيف.

لم يكن هنالك خطر مهدد من هذا النوع عند وفاة سبتموس في مدينة يورك فقد قبل الجيش قرار الإمبراطور دون تردد وأقسموا يمين الولاء لكلا الأخوين كإمبراطورين يحكمان معاً. كان الاحترام الذي يضمه الجيش لذكرى سبتموس سبباً ومصدراً من مصادر القلق والانزعاج. وعندما طلب الأفضلية على أخيه لكونه الابن البكر، لقي التجهم والرفض من قبل الجيش بحيث لم يجرؤ على إعادة الطلب، فقد كانوا يعلمون أن سبتموس كان يعني ما يقول، وأنه كان يود أن يحكم ولداه معاً، وقد قرر الجيش تنفيذ رغبة الإمبراطور المتوفى. كان الجيش يشعر بالارتياح لجيتا الذي كان يشبه والده في أخلاقه وبنيته. وعلى كل حال فالحكم الثنائي لم يكن جديداً على روما ففي أقدم أيام الجمهورية جرت العادة على انتخاب قنصلين لإدارة شؤون الدولة وحتى في أيام الإمبراطورية تقاسم ماركوس اوريليوس لقب الإمبراطور مع أخيه لوشيوس فيروس Lucius Verus وقد ظل هذا الارتباط وهذا الترتيب ساري المفعول حتى وفاة فيروس.

كان اعتماد جيتا ينحصر في والدته التي كانت تؤيده، وإن إشراكه في الحكم كان لا شك بناء على نفوذ وتأثير والدته ورغبتها المخصصة في النصح، وكانت

تعلم حق العلم بوجود التنافس بين ولديها وعدم قدرتهما على الانسجام في تلك المهمة التي أوكلت إليهما باستلام مقاليد الحكم في الدولة، ولكنها رضيت لكونهما بالدرجة نفسها من المساواة. وعندما حان موعد سقوط ذلك الانسجام وانتهياره منحت الفرصة لها لتتآمر ضد أنطونيوس لمصلحة جيتا بالمهارة والحماس نفسه الذي أظهرته عند تأمرها لمصلحة أنطونيوس ضد عمه أبي زوجته بلوتينيوس. وكان حليفها الأمين بابنيان الذي احتفظ بمركزه كعريف للحرس الإمبراطوري. وعندما رأى أنطونيوس أن الجيش ووالدته قد اتحدا ضده لجأ إلى تنمية ذلك الحقد القديم، ولم تُجد مساعي بابنيان ولا مساعي والدته لإرجاعه إلى الصواب والمصالحة مع أخيه. ولكنه كان يتظاهر بالانسجام أمام الجمهور وكانت الإعلانات الرسمية تحمل اسمي الإمبراطورين وقد ترأسا كلاهما طقوس حفلة الدفن وحرق جثة الإمبراطور ووضع رماده في جرة صغيرة حملت إلى روما. وقد رغبا في الرجوع إلى روما بأسرع وقت ممكن خوفاً من ظهور أحد المغتصبين هناك وكانت هذه أول مناسبة لتغيير الأباطرة منذ نشوء تلك الأسرة. وكان من الضروري إنهاء الحرب مع الكاليدونيين ولذلك فقد ألغيت خطة سبتموس بإلحاق الجزء الشمالي من الجزيرة بالإمبراطورية الرومانية، واتفق الإمبراطوران مع الزعماء الكاليدونيين على إعادة المنطقة التي فتحها الرومان وإرجاع الجنود الرومانيين إلى ما وراء نهر التاين وموري فيرث Moray firth. وأصبح السور الحد الفاصل مرة ثانية ولكنه لم يعد كما كان في السابق مهدداً بالغزو في كل لحظة على يد القبائل المتوحشة، فقد كانت حملات سبتموس كافية لإبقاء الكاليدونيين في حالة من الخضوع والهدوء، ولم يعودوا في حاجة ليتذكروا الردع والانتقام الروماني. وكان هنالك سبب آخر للمناعة التي أصبح السور يتمتع بها. إذ حالما تم تبادل الزواج بين رجال الحامية وسكان الحدود من الجانب الآخر نما حزام واق يحتوي على أرض مستقلة أصبحت تميل إلى أن تكون رومانية، يتمتع سكانها بأواصر المصاهرة والقرباية مع القرى والحصون المجاورة. كان هذا الحزام الوافي المتسع شيئاً فشيئاً يعمل على حماية تلك الولاية الرومانية وتأمين حالة السلم والاستقرار فيها مدة مئة سنة قادمة بغض النظر عن أي متاعب ابتليت بها الإمبراطورية فيما بعد.

وبعد عقد المعاهدة مع الزعماء الكاليدونيين تحرك الركب إلى روما. ولكن الرحلة كانت غير مريحة بالنسبة للجميع. فقد رفض الأخوان التكلم مع بعضهما ورفضوا تناول الطعام معاً، وكانا ينزلان في منازل منفصلة عند رسو السفينة في أي مرفأ. وكان كل منهما يتهم الآخر بمحاولة دس السم له. وقد عجزت جوليا عن التدخل ما دام أنطونيوس قد اعتبرها شريكة لأخيه وخصماً من خصومه. وعند وصولهم إلى روما تجمع حشد كبير مؤلف من رجال مجلس الشيوخ المرموقين للتحية وكانوا يلوحون بأغصان شجر الغار وكان هذا الاستقبال تعبيراً عن الثقة بالحكم الجديد، ونظراً لأهمية ذلك الاستقبال بالنسبة لبقاء الأسرة بأجمعها، تظاهر

الأخوان بالوفاق والانسجام، فلبسا الأردية الأرجوانية ومشيا جنباً إلى جنب في موكب مهيب إلى الموصوليوم، حيث وضعوا الجرة التي تحوي رماد والديهما. وحالما رجعا إلى القصر سقطت أقنعة الوفاق وعادا إلى ما كانا عليه من الخصام، فاختار كل منهما جناحاً في القصر بعيداً عن جناح الآخر. وبني كل منهما قواطع تفصل جناحه عن جناح أخيه. وإذا أراد أحدهما الاتصال بالآخر فعليه أن يدور خارج البناء ويمشي حول السور الخارجي ثم يدخل جناح أخيه من باب آخر.

لقد انشقت المجتمعات الرومانية إلى جماعات متنازعة بسبب ذلك الخصام بين الأخوين، ولم يكن ذلك الخصام ليحمل طابعاً خطراً أثناء حياة سبتيموس ولكن بعد وفاته أصبح الأمر مختلفاً، إذ إن زعيم كل فريق من الفرقاء المتخاصمين كان إمبراطوراً وله حقوقه الخاصة، وكان جيتا يملك تأييد أصدقاء والدته بمن فيهم بابنيان. وكان من الواضح من تتابع الحوادث أن كثيراً من أعضاء مجلس الشيوخ كانوا من مؤيديه، وذاع صيته بالاعتدال والتعقل وتلك الصفات التي نادراً ما يملكها شاب في عمره بعد تسلمه زمام السلطة في جنوب بريطانيا عندما تركه والده هناك مسؤولاً عن الإدارة. وقد رسخت هذه الفكرة الآن بعد أن رأى الناس حصافته وحسن إدارته وتصرفاته مع أولئك الذين اتصلوا به. وأما أنطونيوس فكان يميل إلى إملاء رغبته على أن يصغي للأخريين ولم يستطع أن يخفي احتقاره لكرامة الرجال المدنيين، وكان يتوق دوماً لاسترضاء رجال الحرس البريتوري ولم يكن هؤلاء يدرون لماذا عمل سبتيموس على جعل إرثه ينحصر في وريثين اثنين في وقت واحد. ولم يروا أي علاقة بين ولانهم للإمبراطور السابق وبين الاستجابة لانفلات الابن الأكبر.

أثار الخصام الإشاعات في روما، إلا أنه لم يؤثر كثيراً في الإمبراطورية التي حازت على السلم والارتياح في كل مكان ولاسيما عندما تأكد الجميع أنه ليس هنالك من حرب محتملة يقوم بها طامع بالمنصب الإمبراطوري بعد أن حسم سبتيموس الأمر نهائياً. وهنالك شواهد وقرائن تشير إلى نمو شيء من الازدهار في أواخر حكم سبتيموس، وقد سجلت النقوش والكتابات أخبار إتمام الحمامات وقنوات جر المياه، وإنشاء الطرق والأعمال الأخرى في المرافق العامة وتعبير تلك الكتابات عن امتنان المجتمع للتشجيع الإمبراطوري والحماية والاستقرار. وكان سبتيموس حريصاً على اختيار أشد الرجال كفاءة لمنصب حكام الولايات وأفضلهم شخصيات وأخلاقاً. وكان يقوم بالعقاب الرادع لكل من يجترح المظالم. وقد كان حريصاً على تعيين الحكام من أصل يوناني لحكم المناطق التي تتكلم اليونانية والحكام من أصل روماني للمناطق الرومانية الذين يتكلمون اللاتينية حتى يتكلم الحاكم والمحكوم اللغة نفسها. وأما بالنسبة لعامة الشعب في الإمبراطورية الذين كان همهم الوحيد العيش بسلام واستقرار، فقد كان حكمه استمراراً مهيباً لحكم الأنطونيين وكان أمل الجميع أن يتبع أولاده السياسة نفسها.

وأما المراقبون الوثيقيو الاتصال بالحكومة المركزية فقد كانوا أقل ثقة بنتيجة ذلك الحكم المزدوج لاسيما لدى رؤيتهم الفوضى التي سببتها الكراهية بين الأخوين والنزاع بينهما. إذ عند شغور أي وظيفة مدنية أو عسكرية في الدولة كان كل من الأخوين حريصاً على ملئها بأحد رجاله المقربين. وفي المحاكم عندما كانا ينظران في الدعاوى كان كل منهما حريصاً على الحكم ضد حكم الآخر لمجرد الخصومة وليس جرياً وراء العدل وإبطال الظلم. وفي المباريات كان كل منهما يدعم الفريق الخصم. وطالما حدثت مصادمات في الشوارع لهذا السبب. وكانت جوليا تراقب ذلك والألم يحز في نفسها واليأس يتسرب إلى روحها، وشعرت بالعجز في الوصول إلى حل يرضي الطرفين ويرضيها شخصياً مع أن الحل الذي كان يرضيها شخصياً هو عزل الأخ الأكبر وترك الأصغر ليحكم وحده.

وأخيراً نجحت في إقناع الأخوين الاثنين بحضور اجتماع يضم مستشاري والدهما القدماء للبحث ومناقشة تلك الورطة. وقد اقترح بعضهم في الاجتماع تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين وإعطاء أنطونيوس الحكم في أوروبا وجيتا الحكم في آسيا مع جعل اليوسفور حداً فاصلاً بينهما وأن يحتفظ أنطونيوس بروما كعاصمة له. وقد قبل جيتا عاصمته الإسكندرية أو أنطاكية. إذ كان يفضل العيش في تلك المراكز الثقافية على العيش في روما. واقترح تقسيم مجلس الشيوخ أيضاً فالشيوخ من أصل شرقي سوف يتبعون جيتا والباقيون يتبعون أنطونيوس. ومع أن حصة جيتا كانت القليل من الشيوخ إلا أن هؤلاء كانوا زبدة مجلس الشيوخ ويشتملون على الشيوخ الأذكياء والمفكرين، وهم جميع الذين أزروه ودعموه ضد أخيه في الشهور الماضية. وكانت حصة أنطونيوس في هذا التقسيم المجال الأوسع والأكبر في الميدان التجاري. أما جيتا فكانت حصته هي مركز الثروة والمال.

كانت هذه الخطة أكثر عنفاً وتطرفاً من تلك الخطة التي وضعت بعد قرن من الزمان عندما أعلن تقسيم الإمبراطورية الرسمي. فلم يكن هنالك تفكير بعد بالانفصال الرسمي. ومع ذلك فقد رفضت جوليا ذلك الاقتراح وأبدت فزعها منه. فلم تر فيه أي أمل بالمصالحة بل بالعكس رأت فيه تهديداً لوحدة العالم الروماني وهو خرق سوف يتزايد حتى يحطم سلام الإمبراطورية. فإن كان جيتا لا يستطيع الحكم بشكل إمبراطور مطلق، إذن من الأفضل تركه يحكم بالاشتراك مع أخيه إمبراطورية موحدة على أن يعطى أملاكاً خاصة، وقالت إن واجبها نحو الإنسانية يقضي بالاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية وعدم مساسها.

وقد هتفت تقول: «يمكنكما حينها أن تقسما جسمي بينكما».

وكان لمعارضتها تأثير حاسم أظهر النفوذ الذي تمتعت به تلك المرأة. وقد انتهى الاجتماع بمنظر من المناظر الانفعالية العنيفة إذ وقفت جوليا والدموع تنهمر من عينيها وهي تمسك بولديها كل واحد بيد وتحاول أن تقرب الواحد منهما

إلى الآخر. وقد تفتقر قلوب الحاضرين حزناً وأسى، وسُحِبَ الاقتراح ولكنها لم تستطع هي أو بابنيان اقتراح أي خطة بديلة مقبولة تساعد في إحلال السلام بين الأخوين.

ظلت أحوال الشعب تسير باتجاه المتاعب والفرقة. فقد عاش الأخوان كل لوحده وكانا يتجنبان لقاء بعضهما بعضاً ولم يلتقيا إلا عند الضرورة ولإتمام بعض الشؤون الرسمية، وكان أنطونيوس مشغولاً في إعداد خطة جديدة لتصفية الأمور. فقد زاد من احتكاكه بالحرس البريتوري وهو يمزج الرجاء بالعطاء، ويحاول جمع فريق منهم حوله ويربطهم بروابط الولاء مع المصلحة والفائدة. وعندما شعر أن خطته قد نجحت نسبياً، أخبر أمه أنه كان تواقاً للمصالحة مع أخيه جيتا وقد اقترح اجتماعه مع أخيه لوحدهما بحضورهما دون سلاح ودون خدم بعد التخلص من حرسهما.

سُرَّتْ جوليا لسماع نبأ التغيير الذي حصل لقلب ابنها ووافقت بسرور على التعاون وقد كان حماسها شديداً لدرجة أن اقتنع جيتا بحضور الاجتماع المطلوب واجتمع ثلاثتهم في وقت متأخر من الليل في غرفتها في القصر. وكانا وحيدين مع أمهما في الغرفة طبقاً للشروط المطلوبة ولكن كان أنطونيوس قد وضع اثنين من رجاله المسلحين ينتظران في مخبأ. حيا الأخوان أحدهما الآخر بتحفظ وأدب وابتسمت جوليا لتظهر رضاها عنهما، ولكن فُتِحَ الباب فجأة على مصراعيه وانفتح الرجلان المسلحان وهما مشرعان سيوفهما. وعندما رأى جيتا أنه وقع في الفخ ركض إلى أمه وهو يأمل أن يحترم هذان هيبة الإمبراطورة (الأوغستا) ويقلعا عن الهجوم، وقد وضع ذراعيه حول أمه بينما حضنته في صدرها معرضة جسمها للخطر لإنقاذه. ولكن القاتلين تقدموا نحوها بعنف ووحشية وجرحت في ذراعها ولكن السيف اخترق جيتا وأصابه إصابة قاتلة في القلب وتشربت ملابسها بدماء ابنها.

وحالما رأى أنطونيوس أن أخاه قد مات ركض عبر القصر وهو يصرخ ليعلم الجنود الحرس أنه كاد يُقتل بسبب مؤامرة دنيئة، وقد أمرهم باصطحابه وحراسته إلى مخيمات الحرس البريتوري، وقد صدق الحرس أقواله وتبعوه وهم يحملون المشاعل إلى الشوارع في الظلام، حيث نشر ظهوره في هذا الوقت المتأخر من الليل الرعب والتهويل في المدينة. وفي المخيمات فوجئ الحرس بظهوره وكان الكثيرون منهم في الحمامات ويستعدون للنوم. فأصغوا بذهول لقصته غير المترابطة بعد أن أضاف إليها بعض التفاصيل حول مبارزة يائسة خرج منها منتصراً، وقد لمح أن خصمه كان (جيتا). وهكذا أثار اهتمام الحرس عندما أعلن أنه بمناسبة نجاته قد أمر بتوزيع مبلغ كبير من المال كهبة ولإثبات أن هذا لم يكن مجرد وعد لا يوفى، أرسل الرسل حالاً لخازن الخزينة يأمره بجمع تلك الأموال. وقد أمن بهذه اللقطة والإشارة تأييد ودعم الحرس البريتوري حتى بعد أن وصلت الإشاعات من القصر تحمل أخباراً أوضح عن الحادث. قضى الليل في

المخيمات في مقام الإله (مارس) المقدس، وفي الصباح زار أحد معسكرات الجيش وهو يبعد قرابة ثلاثين ميلاً ويقع في البانوم Albanum وهي أقرب قوة من قوى الجيش إلى المدينة، قفلت الحامية الأبواب في وجهه نظراً لولائها (لجيتا) وبقي عدة ساعات يرغي ويزبد وهو في حيرة من أمره، ثم عرض عليهم رشوة ليسمحو له بالدخول. وأخيراً اتفقوا على مبلغ من المال وأقسم له رجال الفرقة يمين الولاء كإمبراطور مطلق، وكان قد انتصف النهار فركب مسرعاً إلى روما ودخل مجلس الشيوخ يصاحبه حرس مسلح وقد لبس درعاً من الزرد احتياطاً وحذراً تحت ملابسه. وكان أعضاء مجلس الشيوخ لا يزالون في المجلس.

كانت المدينة تعيش على أعصابها طوال النهار، فقد تسربت أنباء الليلة الماضية من القصر أن أحد الأخوين الإمبراطوريين قد قتل وأن أخاه هو القاتل وأنه ركب إلى الريف للحصول على تأييد العساكر. وكان الوضع يشبه إلى حد ما، ما كان عليه الحال بعد اغتيال كومودوس ولكن في هذه الحالة ليس هنالك من خليفة مناسب مثل بيرتناكس مقبول لمعظم الشيوخ. وحتى أولئك الذين لم يكونوا من حزب جيتا، هالهم ذلك الأسلوب الذي تم به الاغتيال ولم يكن لديهم أي رغبة بالسماح أو التستر على جريمة قتل الأخ. ولكنهم سكتوا عندما رأوا القاتل بنفسه يدخل إليهم وحرسه يصطف في الممرات بين مقاعد الشيوخ شاهرين سيوفهم.

ورغم إظهاره للقوة إلا أن كلماته كانت لا تخلو من التوسل والمصالحة. فقد كانت حنجرته قد جفت من كثرة الصياح طوال الليل وفي الصباح، وبدأ خطابه بالاعتذار لخشونته مما سبب بعض الهدوء في المجلس. فانتهز هذه الفرصة لتلاوة قصته التي اختلقها عن حوادث الليلة الماضية مصراً أن جيتا هو المعتدي ولم يكن دوره أكثر من دور المدافع عن النفس. ولكن هيهات، فلقد كان الشيوخ على علم تام بما حدث فلم يصدقوه. ولم يتأثروا أيضاً عندما اقتبس قصة روميولوس مؤسس روما الذي قتل أخاه ريموس، فقد كان وجود الحرس سبباً في منعهم من إظهار سخريتهم منه. ولكن عندما أنهى خطابه وجد هنالك في المجلس بعض الأذلاء الخانعين الذين صفقوا له. وأخيراً نهض للخروج من المجلس. ولكنه عند وصوله إلى الباب خطرت له فكرة، فرجع ليعلن لهم أنه بمناسبة استلامه السلطة الكاملة فقد قرر منح العفو عن جميع أولئك الذين نفاهم أو عاقبهم والده لتأييدهم ألبينوس في الحرب الأهلية.

وكانت هذه ضربة معلم إذ إنها قد أكسبته عطف طبقة النبلاء، فلم يكن هنالك في روما من أسرة عريقة إلا وقد أصيب أحد أفرادها بشخصه أو في أملاكه ضرر لتفضيله ألبينوس العريق النسب على سبتموس الإفريقي من الطبقة المتوسطة. وإن شجاراً يجري بين ورثة الأسرة المالكة وإن انتهى بقتل الأخ لأخيه ليس في وقعه أهم من إرجاع أصدقائهم إلى حريتهم وحقوقهم والتعويض عن أضرارهم ورد اعتبارهم. وعندها وقف أحد الشيوخ المرموقين واقترح إصدار قرار من المجلس بالاعتراف بأنطونيوس إمبراطوراً مطلقاً وشجب واتهام

جيتا الميت بكونه عدواً للشعب. وقد عرض هذا الاقتراح للتصويت وتمت الموافقة عليه.

قضى أنطونيوس تلك الليلة في مخيم الحرس البريتوري، ولكنه في اليوم التالي حالما تواترت الأنباء وانتشرت في روما أن أنطونيوس قد اعترف به كإمبراطور على يد الجيش ومجلس الشيوخ زادت ثقته بالنجاح وحضر احتفالات تنصيبه إمبراطوراً في الكابيتول، وقد رجع من هذا الاحتفال إلى القصر متأبطاً ذراع بابنيان. ومع أن بابنيان كان يظمر الصداقة لأمه ولأخيه جيتا إلا أن معرفته الواسعة بالقانون كانت ضرورية لأنطونيوس في هذا الوقت بالذات وفي تلك المحنة. وعند عبورهما الفوروم سأله أنطونيوس عن السوابق القانونية التي يمكن أن يجدها له بابنيان لوضع ختم الموافقة على قضية استيلائه على السلطة. ولكن بابنيان لم ينبس ببنت شفة. فأعاد عليه السؤال وأخيراً أجاب بابنيان: «إنّ اقتراف جريمة قتل الأخ أسهل من الدفاع عنها».

كان أنطونيوس يملك صفة حدة الطباع نفسها التي تمتع بها والده. فدعا الحرس وأمرهم باعتقال عريفهم ووقف يراقبه حينما جروه بعيداً، فقد كانوا من الرجال الموتورين ضد بابنيان بسبب النظام الذي أجبرهم عليه بالقوة. وإذا بأحدهم يأتي بفأس من حانوت مجاور ويقتل به بابنيان فوبخه أنطونيوس قائلاً: «لقد كان من الأجدر لو استعملت سيفاً لهذا الغرض».

وفي القصر وجد أمه تيكي تحيط بها صديقاتها من النسوة. فصرخ بها أن تكفكف دموعها وتبتسم له. وقد حذرهما من اتهامها بالخيانة لحزنها على ولد أدانه مجلس الشيوخ لكونه عدواً للشعب، وقد تفوه بكلمات أفسى وأوقح مع النسوة، فاعتقلهن جميعاً وأعدم بعضهن وبينهن كورنيفيسيا Cornificia العجوز وهي ابنة ماركوس أوريليوس وإحدى آخر من بقي على قيد الحياة من تلك الأسرة. وعندما خيروها بالطريقة التي تود الموت فيها، أزالَت مجوهراتها وخلعت ملابسها البسيطة وتناولت سكيناً وقطعت شريانها ثم صاحت: «أذهبي يا روعي سواء أحبوا ذلك أم لم يحبوا إنك ابنة ماركوس أوريليوس!» وكانت إحدى صديقات جوليا الحميمات.

ومن الرجال الذين صب عليهم أنطونيوس جام غضبه انتيباتر Antipater معلم الأخوين عندما كانا طفلين صغيرين. إذ عندما سمع هذا بمقتل جيتا نظم قصيدة وأرسها إلى أنطونيوس وهو يشبه بها الدولة الرومانية بجسم إنسان ترك بعين واحدة ويد واحدة. وكانت قصيدة رائعة مكتوبة بالأسلوب الكلاسيكي سببت له الهلاك لوثوقه بمتانة أسلوبها الأدبي لحمايته. فقد هاج أنطونيوس وهاج لتدخل هذا المعلم في شؤونه الخاصة ونفاه بعد أن شوه سمعته إلى بلده ومسقط رأسه على الفرات العلوي، ولكن انتيباتر تأثر كثيراً من هذه المعاملة فأعلن الإضراب عن الطعام حتى الموت.

عمل أنطونيوس على تطهير جميع الجيوب التي كان يشك في وجود أعوان جيتا فيها، شمل ذلك التطهير أعلى الطبقات وأدناها وجميع الفنانين والراقصين الذين كانت حفلاتهم قد نالت إعجابه، وجميع الفتيات الجميلات اللواتي كن يتمتعن بمغازلته. ووقع العقاب الصارم أيضاً على رفاقه الذين كانوا يقاسمونه اهتماماته العقلية والذهنية وقد اكتشف بين أوراق جيتا نسخة من كتاب علمي لم يرق له فأمر بإعدام مؤلفه وهو سامونيكوس سيرينوس Sammonicus Sersnus فداهم رجال الأمن ذلك الرجل أثناء العشاء وجروه إلى ساحة الإعدام.

انتقل الإرهاب إلى الولايات وكان من بين الضحايا بعض الشخصيات البارزة من أرقى الطبقات وقد أُلّف ديو قائمة بأسمائهم فيما بعد، ووصل عددهم إلى الألوف ولكن حذفت تلك الأعداد من ملخص كتابه وبقيت أسماء الرجال ذوي المكانة الاجتماعية العالية فقط من الذين أعدموا. فقد كان أحد أبناء بيرتناكس الصغار من موظفي الدولة المخلصين ولم يكن به من عيب سوى عزه عن كبح فلتات لسانه وأقواله الذكية وقد كفته إحدى النكات حياته عندما وصلت إلى أذني أنطونيوس. فقد كانت العادة أن يلقب الإمبراطور الروماني بعد حملة ناجحة بلقب مشتق من اسم الشعب الذي أخضعه مثلاً كلوديوس لقب بلقب بريتانيكوس لأنه أخضع بريطانيا. ولقب تراجان بلقب داسيكوس لأنه أخضع داسيا ولكن بيرتناكس الابن اقترح تلقب أنطونيوس باسم جيرمانيكوس إذ إن الكلمة اللاتينية جيرمانوس Germanus تعني الأخ.

ومعظم الضحايا كانوا من أسر نبيلة مرموقة كان أنطونيوس قد خدعهم عندما وعد مجلس الشيوخ بإصدار العفو للجماعة الذين نفاهم والده والذين أيدوا ألبينوس ضد سبتموس سيفيروس، ولم يكن ذلك الوعد سوى فكرة بارعة مفاجئة لإخراجه من ورطته لم يحترمه على الإطلاق بعد استعداده قوته. وهكذا أصبح النبلاء أكثر كرهاً له بعد أن خدعهم وأصبح الكثيرون من النبلاء الذين لم يهتموا بجيتا أثناء حياته من المخلصين له بعد وفاته، وأصبح اسمه رمزاً للمقاومة والوسيلة لإثارة الكراهية ضد أخيه الذي أصبح الإمبراطور المطلق. فلم تعد القضية قضية شجار بين أفراد الأسرة الواحدة، بل أصبحت عبارة عن ثورة شملت جميع أجزاء الإمبراطورية حيث أصبح الإمبراطور أمام قوى ذات نفوذ وثروات موروثية، أي الموقف نفسه الذي واجه والده في بدء حكمه فقد أصبح أكثر الناس ينظر للبيت الإمبراطوري باعتباره انتهازياً من أصل وضع من الولايات ويخافونهم ويكرهونهم بسبب ميولهم المحلية وتعصبهم للولايات.

إن تطور النزاع بهذا الشكل يساعدنا على تفسير ما صعب فهمه من موقف جوليا إزاء هذا الوضع. فقد كان جيتا ابنها المحبوب المدلل وكان من المؤكد أنها لو استطاعت نبيل أغراضها دون إحراج الأسرة وتعرضها للخطر لكانت نصبت جيتا إمبراطوراً بدل أنطونيوس ولكن لم تسنح لها الفرصة ولم يساعدها الزمن. إذ بعد قتل جيتا هُددت بالعقاب الصارم إذا هي لم تتبسم واستمرت بالبكاء. ومع ذلك

وبعد موت جيتا استمرت في حمل لقب (الأوغستا) (الإمبراطورة) وظلت تعيش في وئام واحترام مع ابنها الأكبر وقبلته إمبراطوراً، وأثناء غيابه المتكرر في الأثناء النائية من الإمبراطورية كانت تتمتع بكل صفات الوصية على العرش ما عدا الاسم، وكانت تدير الاقتصاد الإمبراطوري بالنيابة عن ولدها بالموهبة نفسها التي كرس لها نفسها في الفلسفة والعلوم. فإذا كانت الأسرة قد استطاعت أن تصمد أمام صدمة قتل الأخ وإذا كانت الإمبراطورية قد ازدهرت أثناء الحكم الجديد كما كانت أثناء الحكم القديم فالفضل لا شك يعود إلى جوليا بالذات.

وتتهمها الإشاعات المعاصرة وأولئك الذين يسعون وراء الفضائح أنه كان لديها نوع من الحب المحرم لابنها الأكبر. ومع أن الديانة السورية تقرر وتوافق على التسري، إلا أنه ليس هنالك أي دليل أن هنالك رخصة وسماحاً بالحب المحرم. وعلى كل حال فإن حال هذه التهمة تتعارض مع الحقائق المسجلة. فإن ديو الذي كان يعرف الأم وابنها معرفة تامة يعلن أنها لم تنس مقتل ابنها جيتا طوال حياتها، ولكنها كانت امرأة ذات عقل راجح ترفض أن تدع شعورها الشخصي يطغى ويعطل ملكة تمييزها واجتهادها السياسي. وفي أثناء حكم زوجها ساهمت في أعماله لإعادة السلم والوحدة للإمبراطورية الرومانية، وكانت تنوي قطف ثمرات ذلك العمل، وكان الرائد الذي اختارته لهذا العمل هو جيتا، ولكن جيتا قد مات، وأصبح أولئك الذين كانوا يؤيدونه يهتمون بمصالحهم أكثر من اهتمامهم بالانتقام لمقتله، ولم يبق سوى أنطونيوس لحمل واستمرار اسم الأسرة. ولهذا قبلته لعدم وجود شخص آخر أفضل منه وبعد أن عملت رأيها وقررت ذلك القرار، قبلت نتائج قرارها وهي ضرورة خدمته إلى النهاية وهذا ساعد على مصالحته فأصبح يميل للاعتماد عليها شيئاً فشيئاً، وذلك لأن عبقريتها السياسية وجدت لها مجالاً لم تجده أثناء حكم زوجها ففي مدة خمسة وعشرين عاماً أصبحت تلك العروس الشابة صغيرة السن التي زفت إلى قاضي لوجدونوم، الحاكم الفعلي للإمبراطورية الرومانية.

ولكن منجزاتها تعتبر أكثر قيمة نظراً للحسد والغيرة التي اصطدمت بها في حرص التقاليد الرومانية على احتكار السلطة بيد الذكور. فقد كانت وظيفتها ودورها أن تحكم دون أن تظهر أنها هي الحاكمة. وذلك بأن تكون الأوامر والمراسيم والفتاوى كلها باسم الإمبراطور، وكانت إحدى مظاهر الإدارة الرومانية أن تنحصر مراكز الإدارة وضبطها وتسيير شؤون السياسة اليومية بيد بيروقراطية تتألف من العبيد والعبيد المتحررين. وكان تعامل جوليا في أعمالها الإدارية لا ينحصر في موظفين ذوي عقول نيرة متحررة، بل مع طبقة ولدت وهي تترشح تحت العبودية. واعتادت على السمع والطاعة. وكان كثير منها من عبيدها أو من الذين نالوا حريتهم بفضلها، وكانت تستطيع فرض إرادتها عليهم دون إثارة أي غضب أو اشمئزاز وكانت قراراتها تصل إلى العالم وهي مهمورة

بختم الإمبراطور و مترجمة إلى مراسيم إمبراطورية، فقد كان صوتها يفقد أنوثته في الصيغ الرسمية الروتينية.

وأما في القصر وفي الحدائق وفي بيتها الريفى فقد خيم الحزن والوجوم على الاجتماعات هناك لفقد بعض الوجوه المألوفة والمحبوبة. فقد كتب فيلوستراتوس وصفاً مؤثراً لذلك المكان الذي خلا من جيتا وبابنيان عندما قال إن طيور اللقلق قد هجرت ذلك المكان. ولكن بدلاً من طيور اللقلق أتت آلهة البحر لتعيد البنيان وتعيش هناك مرة ثانية في بيتها المهدم. وعندما قررت جوليا مصالحة أنطونيوس ابنها الأكبر كان من الواجب على رجالها وأصدقائها اتباع سياستها نفسها. وأما فيلوستراتوس فقد امتد به العمر ليشهد حكم إمبراطورين آخرين ولم يتوقف عن العمل الخلاق. إلا أنه لم يكمل كتابه عن حياة ابولونيوس إلا بعد وفاة جوليا. وأما في المجالات الأخرى فقد استؤنفت النشاطات الفكرية بل وازدهرت وأكمل أولبيان Ulpian تلميذ بابنيان تلك الجهود التي بدأها أستاذه في إعطاء سمة إنسانية للقوانين الرومانية. وأما الشاعر أوبيان Oppian فقد نال الحظوة والعطف لدى الإمبراطور الجديد بحيث استحصل على العفو عن والده الذي كان سبتموس سيفيروس قد نفاه من روما إلى جزيرة بعيدة بسبب احتقاره واستهزائه وإحجامه عن الاشتراك في الاحتفالات بمناسبة انتصار الإمبراطور في معركة ايسينوس Issus.

لقد مارس أنطونيوس الحكم في السنوات الخمس التالية لوحده وقد عرف باسم كاراكلا اللقب الذي أطلقه عليه الجنود الذين رافقوه إلى روما. ولم يجد حرجاً في قبول هذا اللقب بل كان يبدي سروره لرؤية الناس وهم يلبسون الكاراكالا Caracal وهي العباة الغالية الطراز التي كان يلبسها أولئك الناس تقليداً للإمبراطور في شوارع روما. وأما في الوثائق الرسمية فإن اسمه كان أنطونيوس الأكثر ملاءمة لمقامه الإمبراطوري. والحقيقة أن اسم كاراكلا لم يطلق عليه رسمياً إلا بعد وقت طويل من موته عندما كان يلذ للأسرة الجديدة تسميته بهذا اللقب اسنهزاءً به. ولكن المؤرخين درجوا على استعمال هذا اللقب بدلاً من أنطونيوس.

وبعد موت جيتا بقليل أرسل أنطونيوس الجلادين لتنفيذ حكم الإعدام بزوجته بلوتيللا Plautilla وأخيها، وكانا يسكنان في إحدى الجزر أثر الفضيحة التي حلت بوالدها وبعد موته. وكان سبتموس قد منحها بعض التعويضات الكافية لدرء العوز والفقر عنها وكانت تخشى (بحق) تغير وضعها إلى الأسوأ حالما يستلم أنطونيوس زمام الحكم، فهي تعلم أنه يتوق للتخلص منها وهكذا كان. إذ لم تكن هنالك أي مفاجأة لها عندما صدرت الأوامر بإعدامها فأعدمت مع أخيها.

ولكن كاراكلا لم يتزوج بعدها ولم يتقدم لخطبة أي فتاة اللهم إلا أميرة فارسية. ويصر ديو على القول إن أنطونيوس لم يحب أحداً سوى نفسه وإنه قد ظهرت فيه بعض الأعراض التي أجبرته على استمرار حالة العزوبية والعزوف

عن الزواج. ويعزو معاصروه هذه الأمراض للانتقام الإلهي لقتله أخيه. وكان أنطونيوس يشعر بالاعتقاد نفسه، لهذا فقد عقد جلسة لاستحضار الأرواح لتقدم له النصيحة والعون وقد لبت روح سبتيموس الدعوة، ولكن روح جيتا رافقت روح والده مع أنها لم تدع. ولم يتكلم أحدهما أي كلمة فطرد هاتين الروحين وهو يرتجف فزعاً، ثم حلت محلهما روح كومودوس ولكن كلمات هذا لم تجلب أي عزاء لأنطونيوس فقد حذرتة من لعنة أحاطت به بإصابته بمرض غير قابل للشفاء في أجزاء خاصة حساسة من جسمه.

ومع أنه منع أي إنسان من التحدث عن عجزه الجنسي، إلا أنه حدثت مناسبة تسببت في فضحه وهي أنه اتهم إحدى الفتيات من عذراوات فستا Vestal Virgins (وهن راهبات مشهورات بعفتهن وطهارتهن) بالزنا وكان قد حاول اغتصاب إحداهن. ولكن الفتاة احتجت بأن بكارتها لم تنزل ولم تمس. ثم صرحت قائلة: «إن على الإمبراطور أن يعلم أنه قد حاول كثيراً ولم يفلح». كان هذا التصريح سبباً في اتهامها بخرق قسمها بالكتمان فأمر بدفنها وهي حية.

إن كثيراً مما نسمعه عن كاراكلا قد أتى من أعدائه وهم يقولون إنهم استقوا أخباره من أشخاص معاصرين يعرفونه شخصياً، ولكن هنالك بعض نقاط الضعف في تلك الأخبار التي تظهر مدى الحقد السياسي عليه. فرغم ما يقولون عنه من احتقاره للعلوم والفنون إلا أنه لم يكن شخصاً فظاً ساذجاً بتلك الدرجة. ويعترف ديو الذي كان يكرهه أنه كان يعزف على الناي ببراعة وأنه حتى بعد صيرورته إمبراطوراً كان يذهب لحضور مجالس أساتذة الفلسفة ليتعلم، وكان لديه بعض المعرفة للمؤلفين الكلاسيكيين والتي اكتسبها منذ صغره. وكان قادراً على إدارة شؤون المحاكم والأمور القضائية بكفاءة ونجاح.

ويقول ديو إن أنطونيوس لم يكن خالياً من أي فضيلة إما كخطيب أو كقاض، فقد كان يفهم القضايا التي أمامه ويتفوه بطلاقة، إذ كان حاضر البديهة وكان يتكلم بما يدور بخاطره بصراحة دون خوف أو خجل وطالما عثر على فكرة مرموقة بهذه الطريقة.

ويقدم لنا فيلوستراتوس صورة قائمة عن سلوك الإمبراطور في حادثة أحد المتأدبين المدعو فيليكوس Philicus إذ طلب هذا الرجل الإعفاء من الخدمة المدنية. وكان هنالك نص في نظام الإدارة السائد في الحكومات المحلية في الإمبراطورية الرومانية أنه يجوز استدعاء بعض المواطنين المرموقين لخدمة الدولة دون أجر بل أحياناً يتكفون دفع بعض المصاريف وهدر أوقاتهم في سبيل المصلحة العامة. وعندما دعي فيليكوس Philiscus هذا وهو أحد مواطني تساليا Thessaly من قبل مواطنيه لأخذ دوره في هذا الواجب، توجه حالاً إلى روما وطلب مقابلة الأوغسطا جوليا وحصل عن طريق نفوذها على كرسي لتدريس البلاغة والبيان في مدارس أثينا. وعندما وصلت القضية إلى المحاكم تمسك بأن وظيفته الجديدة تؤمن له الحصانة.

وكان هنالك سابقة استطاع الاعتماد عليها فقد كان علم البلاغة والبيان محترماً جداً وإن أولئك البارعين في ذلك العلم كانوا يُعْفَوْنَ من بعض المسؤوليات الثقيلة، ولكنه كان سيئ الحظ لأن مزاج الإمبراطور كان سيئاً عندما علم بالقضية، فغضب لتدخل أمه جوليا وتجاوزها سلطاته وصلاحياته زد عن ذلك أن الإمبراطور أظهر كرهه لهذا الرجل لدى النظرة الأولى وكرهه للطريقة التي كان يمشي ويقف بها وملابسه الغريبة وشعره الطويل وصوته المخنث. وحالما بدا هذا الأستاذ بشرح قضيته بصوته المتكلف، عيل صبر الإمبراطور فصاح قائلاً: «إن رجلاً له شعر مثل شعرك، ولديه مقدره في الخطابة والبيان مثل مقدرتك، لماذا تحرم مدينتك من خدماتك لكي نحكم بالإعدام على أولئك الطلاب في أثينا الذين يستمعون إلى محاضراتك السمجة!»

ويضيف فيلوستراتوس أن الإمبراطور منح الحصانة دون تردد لطالب آخر مكافأة له على خطاب رائع ألقاه. وكان هذا أصغر سنناً من الأستاذ السابق. ولم يكن كاراكلا عدواً للبلاغة والبيان ولكنه كان يحب الخطباء الذين يقصون شعورهم كما يجب ويتكلمون بصوت موسيقي مقبول.

بدأت نزوات كاراكلا السيئة تظهر في أواخر حكمه ويصفه ديو وهو في أسوأ حالاته في زيارة قام بها على نيكوميديا Nicomedia ويقول إن الإمبراطور اعتاد أن يرسل خيراً بنيه لعقد جلسة للمحكمة بعد الفجر ولكن عندما كنا نحضر كنا ننتظره حتى منتصف النهار وأحياناً حتى المساء، ولم يكن يسمح لنا حتى بدخول قاعة المحكمة ولكننا كنا نبقى واقفين في الخارج وبعدها وعند حلول الظلام يقرر عدم استقبالنا كلياً. وفي أثناء ذلك كان يتلهى باللعب أو قيادة العربات أو قتل الحيوانات المتوحشة أو احتساء الخمر، وكان يرسل بعض أقذاح الخمر إلى الجنود الحراس على بابه بينما كنا نقف ولا حول لنا ولا قوة ننتظر على الباب ونراقب. ولكنه كان يوافق أحياناً على عقد المحكمة بعد كل ذلك.

إن سلوك أنطونيوس الذي يظهر عدم المبالاة هذا كان مثاراً لتشجيع المخبرين الذين كانوا ينتهزون الفرص، وكان كاراكلا يسيء إلى الموظفين الرسميين المحترمين لمجرد وشاية يقوم بها أحد المخبرين أو من معلومات يحصل عليها من أمناء سره أو من الإشاعات التي يلتقطها من أي مكان أو من الجنود.

وكان يفضل مرافقة الجنود على مرافقيه الرجال المهذبين الذين كان لا يثق بهم ويخشى حقدهم وكرهيتهم له، وكان بطبيعته مزهواً بنفسه تواقاً للإطراء والمدح، وكان في طفولته يعتمد أن يحصل على الإطراء بالظهور بمظهر الأناقة والسحر، ولكنه كان يعتبر تلك المحاولات غير لائقة بكرامته وكانت حالة غروره المجروح سبباً في إصراره على الأعمال التعسفية الأمر الذي سبب غربته وبعده عن تقدير الشعب المتقف، ولم يكن يرتاح إلا للجنود والعساكر فقد احترمه هؤلاء

كامبراطور ونسوا ما اجترحه من قتل أخيه ومن فضائحه. ولم يكن يخفي سروره عندما كان يخدم مع الجنود يقاسمهم السراء والضراء في الحياة العسكرية. وفي أثناء حكمه غاب مرة أو مرتين في زيارة على الحدود حيث يكمن التهديد الوحيد للإمبراطورية الرومانية، وكان بالواقع يعتمد بالقيام بتلك الرحلات أكثر من ضرورتها فلم يكن هنالك من اضطرابات عنيفة تستدعي حضور الإمبراطور، ومع ذلك فقد كان بعيداً عن الكسل، وكان يجد لذة في الأعمال العسكرية لإظهار مواهبه، وعندما تنشب المعارك يظهر أنه قائد كفء استفاد من الخبرة التي اكتسبها أثناء مرافقة والده في بريطانيا، وكانت إنجازاته الرئيسية تنحصر في تنظيمه شؤون الدفاع عندما حاول إتمام ما بدأه والده من تهدئة أحوال المنطقة الحدودية والقبائل التي لم تخضع. وتشير التقارير إلى نشاطه في منطقة الراين وإلى تقوية الدفاع في ولاية رايتا Rhaeta حيث كانت خطوط الحدود تدخل في جبال الألب، وسجلت له أعمال مشابهة على حوض الدانوب وفي ما وراء النهر في داسيا، وهي الولاية التي أضافها تراجان للإمبراطورية والتي قدر لها الضياع والانسلاخ عن الإمبراطورية عندما توقفت أسرة سبتموس عن الاهتمام بها. لقد كان كاراكلا مديناً في نجاحه للشعبية التي حصل عليها في صفوف الجيش وتُعزى تلك الشعبية إلى كرمه في الدفع للجنود وعنايته بشؤونهم، وكان يظهر لهم حياً ومودة لم يظهرها لغيرهم، وقد اتبع خطة والده وهي السير معهم مشياً على الأقدام رافضاً ركوب حصان أو عربة يُصر على رفع علم الفرقة على كتفه وقد كان ذلك العلم ثقيلاً مذهباً يعجز أقوى الجنود عن حمله لاسيما وأن أنطونيوس كان قصير القامة ضئيل الجسم.

وكانت تصرفاته لا تخلو من طبيعة المهرج، فقد كان يهوى إعادة الدور الذي يؤديه مراراً وتكراراً. وإذا صدف أن احتاج الجنود حفر خندق أو عمل جسر فهو أول من يحمل الفأس للحفر. وكان طعامه نفس طعامهم ويطبخ في أوان خشبية وفي بعض المناسبات كان يروق له في إحدى نزواته أن يكون هو الطباخ، أو أن يطحن الذرة ويخبزها لتصبح كعكة يأكلها. ولكن هذه الأعمال ولو أنها كانت تثير الضحك، إلا أنها كانت تحببه إلى قلوب جنوده الذين كانوا يعتبرونه واحداً منهم. فقد حدث أن أنقذه سائق عربته من الموت فكتب إلى مجلس الشيوخ يطلب منهم التصويت على تقديم آيات الشكر والامتنان لذلك السائق، وصرح أن رجلاً مثل هذا يستحق التشريف والاحترام أكثر من أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ.

وكان تفضيله للمعيشة على الحدود مناسباً لجوليا فعندما أشغل نفسه بالشؤون العسكرية ترك لها تسيير دفة الشؤون الإدارية المدنية ومطلق الحرية لتطبيق سياستها. إذ كان تقسيم السلطة بهذا الشكل لا يخلو من فائدة بالنسبة للإمبراطورية التي ازدهرت تحت عنايتها ورعايتها، إذ على الرغم من إشراف ولدها في دفع الأموال للجيش استطاعت أن توفر المال اللازم للأشغال العامة

وشؤون الدولة الأخرى ولم تعتمد على زيادة الضرائب بل على النشاط الذي أبدته في إدارة الشؤون المالية وبالوقوف ضد السرقات والفساد وتركت الدولة في حالة توازن مالي وقدرة على الوفاء بجميع التزاماتها عند وفاتها.

وقد قامت بإصلاح دستوري في الإمبراطورية يدعى *Constitutio Antoniana* (دستور أنطونيوس) وهو قانون يوسع مدى إمكانية الحصول على الرعوية الرومانية إلى جميع سكان الإمبراطورية ما عدا العبيد وبعض الفئات القليلة الأخرى، ثم أصبحت تلك الرعوية حقاً من حقوق كل من يولد في الإمبراطورية أو كعلامة على امتياز أو حظوة خاصة وهذه تُمنح لقاء مبلغ كبير من المال وكانت فائدة هذا القانون تنحصر في إعطاء حق الانتخاب للمواطنين لاختيار القضاة في الولايات والموظفين الآخرين في الحكومة المركزية أو الحكومات المحلية. ولكن هذا الامتياز فقد كثيراً من أهميته عندما حلت الإمبراطورية محل الجمهورية وأصبحت سلطة الأباطرة تتجاوز السلطة المخولة لهم، ومع ذلك فقد ظلت قوانين وامتيازات الرعوية مفيدة في حقوق التملك التي كانت لا تمنح إلا لمن حاز على الرعوية الرومانية وكذلك الزواج المعترف به قانونياً. بالإضافة إلى أن المواطن الذي يملك الرعوية الرومانية كانت لديه حصانة ضد الحكم بالإعدام ما لم يوافق الإمبراطور شخصياً على ذلك الحكم. وهنالك مثل على هذا وهو أن القديس بولس عندما حكم عليه قاض يهودي بالإعدام قال: «إنني أستأنف للقصر».

ولقد كان هذا الشرف يشمل بعض الواجبات كما كان يشمل الحقوق، فقد كان المواطن الحائز على الرعوية مجبراً على أداء الخدمات العامة دون أي أجر. إذ عليه أن يقوم بالعمل بنفسه أو على يد خدمه لإصلاح الطرق والجسور وغيرها من الخدمات اللازمة للمجتمع، ومنها تقديم خيول للبريد الإمبراطوري وتأمين إقامة الموظفين المسافرين في مهمات رسمية مع من يرافقهم. إن تعيين أحد المواطنين عضواً في المجلس كان يُنتظر منه أن يحافظ على كرامة وشرف تلك الوظيفة بما يبديه من حسن الضيافة والكرم والتبرع بالأموال للمصلحة العامة. وقد أوكلت مهمة جباية الضرائب للمجالس المحلية، وكان أعضاء تلك المجالس مسؤولين عن كل الأخطاء والاختلاسات وكان رجال العلم والفنون معفيين من تلك الخدمات. فأى عالم يحتل مقعداً لتعليم البلاغة والبيان يُعفى من تلك الخدمات.

وبزيادة عدد مواطني الإمبراطورية نتيجة هذا القانون، شعر الجميع بالارتياح لزيادة المكلفين بالخدمات وتخفيف العبء عن الباقين، إذ كلما كثر هؤلاء المكلفون أصبح دور الآخرين في القيام بالخدمات طويل الأمد، وكان رأي (ديو) أن الغرض من هذا القانون التعويض على الخزينة بفرض الأعباء المالية على أشخاص كانوا معفيين من الدفع، وهو يعطي مثلاً على ذلك الضرائب المستحقة على وراثته الأملاك وإعتاق العبيد التي كانت مفروضة على المواطنين الذين يحملون الرعوية الرومانية فقط. فالذي لا يحمل

الرعوية كان معفى من هذه الضرائب لأنه لا يستطيع أن يرث بضمان القانون أو أن يمنح حق الاقتراع للعبيد الذين اعتقهم وحررهم. فقانون جوليا قد أزال هذا الإعفاء من الضرائب بالنسبة لأولئك الناس لكنه أعطاهم مقابل ذلك الفوائد التي يحق لمن يدفع الضرائب أن يتمتع بها. وعلى كل حال فإذا كانت الخزينة بحاجة إلى الأموال فإن بالإمكان اقتطاع هذه الأموال وجباتها من دافعي الضرائب دون المساس بالمجتمع الروماني.

إن الروح التي استقبل بها هذا القانون كانت أعظم أهمية من الفوائد المادية المتوخاة منه، فقد كانت جوليا تطمح لتحويل الإمبراطورية من أملاك فتحتها روما وأخضعها بالقوة إلى مجتمع مشترك Common wealth يساهم فيه عدد عظيم من بني البشر. فالرعوية الرومانية كانت امتيازاً يقدم للإنسان الهيبة والكرامة، ولكن عندما ينال الجميع هذا الشرف يفقد قيمته الأرستقراطية. فأولئك الذين كانوا يتفاخرون بنقاوة دمهم الروماني حُرِّموا من هذا الامتياز وأصبحوا على قدم المساواة مع بقية العناصر، وهذا ما أغضب ديو وأصدقائه وجعلهم يتمزقون غيظاً وهم في مجلس الشيوخ.

هنالك مجال آخر من مجالات النشاط برزت فيها جوليا وهو المجال الديني. إذ إن توسع الإمبراطورية الرومانية شمل جميع العالم المعروف وحالما ذابت الحدود المحلية ولم يعد الناس يميزون أنفسهم بالانتماء إلى أمة أو قبيلة، عندها التفت الناس إلى داخل نفوسهم للتفتيش عن معنى لهذه الحياة فأدى بهم ذلك إلى استكشاف طرق روحية.

لم يكن الجميع قانعين بدين روما الرسمي الذي لم يكن يهتم إلا بالقواعد العامة التي يجب مراعاتها والاحتفالات الرسمية التي تقيمها الدولة، وكان الدين هو دين الإمبراطور وكانت عبادته تقضي السمع والطاعة، ولكن الحافز كان سياسياً أكثر منه دينياً. فالآلهة في البارثينون تشبهه فهي تطلب الطاعة أكثر مما تطلب الولاء والإخلاص الروحاني والنفسي. فالآلهة كانت لها معابدها ولكنها لم تكن بقوة الإمبراطور الذي يملك الجيوش والأسلحة تحت تصرفه ويستطيع الثواب والعقاب. وكان المتعبدون يقومون بعباداتهم تبعاً للعادات القديمة التي أصبحت مقدسة ومحترمة مع الزمن وأصبح الناس يهزؤون بالجنيات التي تسمى جنيات البحر وبالخرافات الدينية القديمة ولم تعد هذه الخرافات ملائمة لذوق المتعبدين الذين كانوا يفتشون على الراحة النفسية والروحانية، وكانت روح العصر تتوق إلى رسالة شخصية، وأصبحت الأديان التي انسابت من الشرق مسؤولة عن تأدية هذه الرسالة والتي كان نجاحها متوقفاً على سرعة تقبل تلك الرسالة. فقد نالت الأم العظيمة الآتية من آسيا الصغرى الحظوة في الغرب وكانت عبادتها لا تخلو من القصف والعريضة.

ولكن هذا الصخب والقصف والعريضة لم تقدم الراحة النفسية المطلوبة لأولئك الذين أتعبتهم هموم الحياة وأحزانها، ولم تكن حلاً مناسباً للمشكلة

المطروحة وهي بحث الهدف والغرض من هذه الحياة، فقد نشأ عدد كبير من الناس الذين اعتقدوا أن الدين يجب أن يعلم ويثقف أكثر مما يجب أن يثير العواطف، وهكذا انتقلت الأديان من الكهانة والعرافة إلى الأسرار والغموض، وهذه الأسرار تعني التمثيل الدرامي للحقائق الداخلية، وإغناء الخرافات بالمعاني الرمزية. ولم يكن المتعبد يحصل على المعرفة من المواعظ والكتب بل من الاشتراك بنفسه بالطقوس. وكان كل مذهب ودين سواء الآتي من سوريا أو من بلاد فارس أو من مصر يحتفظ بنكهته ويستعمل الأسماء الإلهية التي اعتاد على استعمالها ولكنها كانت جميعها تشترك في حمل رسالة موجهة للمتعبد، وكانت جميع هذه الأديان تبحث في مصير الروح الإنسانية بعد الموت. وكان بين الدوافع الرئيسية التي تؤثر في المتعبد المتيقن الأمل بالفوز بمكان محفوظ في الحياة بعد الموت.

كانت هذه الفكرة مألوفة لفلسفة جوليا كما يدعوها فيلوستراتوس فلم النجوم الكلداني التي تعرفت عليه جوليا في حمص كان يهتم اهتماماً وثيقاً برحلة الروح إلى السعادة الحقيقية بين النجوم، وكانت هذه التعاليم شديدة الشبه بتعاليم «الأسرار» ولكن هذا المذهب كان يهتم بأحوال الزمن. فالناس لا يهتمون بالمستقبل والحياة بعد الموت فحسب بل يهتمون بالحاضر والحياة اليومية ويتوقون للتعرف على إله يتحدثون معه عن مشكلاتهم اليومية و عما في قلوبهم من الهموم، وقد كانت هذه الحوافز ممنوعة ولا يمكن بحثها في الديانات اليونانية والرومانية التي يسود فيها جوبيتر وعظمته. كانت تلك الديانات تؤمن للمتعبد الرفقة والحنان أكثر من العظمة، وفي رواية الحمار الذهبي يظهر أبولونيوس أن الديانة المصرية التي تمجد ايزيس مشبعة لرغباته وطلباته وينتهي الكتاب بالشكر والامتنان للآلهة لعنايتها وحبها. وينهي لوشيشوش بطل القصة صلاته للآلهة ايزيس بالكلمات التالية: سوف أبقى ملامحك الإلهية وروحك المقدسة ماثلة أمامي إلى الأبد وفي قلبي حيث أقوم بالتأملات الخفية.

ربما كانت جوليا تشعر الشعور نفسه وتحفظ في قلبها تلك التأملات عندما أتت إلى معبد (سيرابيس) في زيارتها إلى مصر. وتشبه هذه التأملات أقوال المسيح الذي يقول: «صلوا لربكم الذي هو السر».

كان هنالك كثير من المسيحيين يعملون في بطانتها ومع موظفيها وكانت تتناقش معهم في التعاليم المسيحية ولم يحدث أي نوع من الاضطهاد للمسيحيين وهي على رأس الدولة، ولم تحدث أي أحداث كالتي وقعت زمن زوجها من تعذيب للمسيحيين على يد الولاة في أقاصي الإمبراطورية. ولقد كانت تشك في مصداقية الديانة المسيحية ولكنها لم تشك في وجوب التسامح، ولقد صعق العالم الروماني عندما علم أن المسيح مات مصلوباً فالصلب كان عقوبة لأخط المجرمين ولهذا السبب أحجم المسيحيون عن إظهار الصليب وفضلوا بعض الإشارات الأقل عاراً وقد كان المسيحيون الأوائل يرفضون عادة إلقاء قليل من البخور على مذبح

الإمبراطور علامة على احترام الإمبراطور، ولم يقصد بها أكثر من إشارة احترام كما يقف الجمهور اليوم عند سماعهم النشيد الوطني إذ يقفون على أقدامهم حالاً. ولكن المسيحيين رفضوا تلك العادة باعتبارها نوعاً من الوثنية. كانت السلطات المحلية تسامح وتغض العيون عن تلك الإهانة وذلك الذنب. ولكن في ظروف أخرى عندما كانت تُثار بذور الحقد والضغينة كان العقاب السجن أو العبودية أو ربما الإعدام.

لم تكن كل هذه الغرائب لتمكن أو توقف غريزة حب الاستطلاع لدى جوليا، ولربما كان سبب الغربة والوحشية بينها وبين الديانة المسيحية إصرار هذه الديانة على قبول إخضاع العقل للوحي والإلهام، فلم يبق هنالك مجال للمجادلات العقلية والتأملية التي كانت هي وأصدقائها تمارسها وتعتز بها مع أولئك الفلاسفة ويكتب الكاتب المسيحي تيرتوليان Tertulian الذي كان معاصراً لها ما يلي: «ليس لنا حاجة للشوق للمعرفة ما دام عندنا يسوع المسيح، أو أن نسأل أسئلة ما دام لدينا الإنجيل. فإذا كنا مؤمنين فلا نرغب في غير الإيمان بديلاً وهذا هو أول مبدأ من مبادئ ديننا ولا ندين بالإيمان لأي شيء آخر». وهذا الموقف لا يمكن أن يرضي جوليا الفيلسوفة.

إن رفض المسيحيين لأي دين غير دينهم ساعد في تلك الفرقة والغربة فكانت جميع المذاهب الوثنية في نظرهم من علم الشيطان، وجميع الآلهة الوثنية من أبناء الشيطان. ولكن فلسفة جوليا كانت تتلخص بكلمات ذكرها فيلوستراتوس على لسان أحد الحكماء عندما استشاره أحد الشباب في فضائل العزوبية، إذ قال: «إنني لا أعتبر من الحكمة تحدي أي واحد من الآلهة كما تحدى هيبوليتوس افرودايت إذ إنه من الأحكم والأفضل أن يعيش الإنسان على وفاق مع جميع الآلهة».

لقد قدمت جوليا الترحيب والإكرام للمسيحيين ولكنهم رفضوا أن يقاسموها هذا الترحيب والإكرام.